

## الشعبوية وأثرها في الأدب العربي

أ . رفيق أحمد

الشعبوية هي نزعة تقوم على تحقير العرب وتصغير شأنهم ومفاخرة الشعوب الأعجمية للعرب مفاخرة تستمد من حضارات تلك الشعوب وعلومها وآدابها . وبرزت هذه النزعة في القرن الثاني الهجري ، الثامن الميلادي في المجتمع العباسي وظلت تنتشر مؤثرة في حياتهم الاجتماعية حتى في آثارهم العلمية والأدبية . وهدف هذا البحث هو تعريف الشعبوية ثم تحديد أثرها في الأدب العربي بإيجاز .

الشعبوية والشعوبيون :

لفظ «الشعبوية» مأخوذ من الشعوب ومفرده شعب وهو جيل الناس وهو أوسع من القبيلة وأشمل - قال الزبير بن بكار : الشعب ثم القبيلة ثم الفخذ ثم الفصيلة ، وعلى هذا فالعرب شعب والروم شعب وهكذا - والشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم ، (١) فالشعبوية نسبة الى الشعوب الأعجمية وهي نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب - وفي مقدمتها الشعب الفارسي - للعرب مفاخرة

تستمد من حضاراتهم و ما كان العرب فيهم من بداوة وحياة خشنة غليظة - وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الاسلام فلا عربي يفضل أعجميا ولا أعجمي يفضل عربيا ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة في نفسها تُعَلَى من شأن صاحبها فالناس جميعا سواء وقد خلقوا من تراب ويعودون إلى تراب. وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب - وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأعجمية على العرب وتنقصوا قدرهم وصغروا شأنهم (٢) .

وذهب قوم إلى أن الشعوبية مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٣) وقالوا : إن المراد بالشعوب بطون العجم والقبايل قبائل العرب . وهذا تفسير خاطئ ، لأن العرب لم تكن تفهمه حين نزول الآية . فقد نقل الطبري في تفسيره آراء كثيرة من الصحابة والتابعين في تفسير الآية وكلها تدور حول ان المراد بالشعوب النسب البعيد والبطون والقبايل دون ذلك . (٤)

ويبدو أن تفسير الشعب بالعجم والقبايل بالعرب تفسير شعوبي وضعه أعجمي واستطرد منه إلى القول أن العجم أفضل من العرب ، لأن الله قدمهم بالذكر ، وقد غلط فيه من وجهين : أحدهما أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ فقدم الجن على الإنس والإنس أفضل من الجن . والوجه الآخر أن العجم ليست

بالشعب أولى من العرب ، فكل قوم كثروا وانشعبوا فقد صاروا شعوبا .

وظاهر أن دعاة الشعوبية بدأوا دعوتهم للتسوية مستندين على تعاليم الاسلام نفسه ، فهو لايفضل شعبا على شعب ولكنهم تدرجوا فيما بعد من ذلك إلى تحقير العرب وشؤونهم وبيان ميزة الأمم الأخرى عليهم ، وساعدهم على ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر في الدولة العباسية وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد ( ٧٨٦/١٧٠ - ٨٠٩/١٩٤ ) وبنو سهل في عهد المأمون ( ١٩٨هـ / ٨١٣م - ٢١٨هـ / ٨٣٣م ) . فالشعوبيون هم الذين يعلنون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقا شديدا على كل ما هو عربي ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثاروا لأبائهم على العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين .

وقد ذهب ابن قتيبة إلى أن الذين اعتنقوا الشعوبية هم سفلة الناس وغوغاؤهم كما قال : « ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة و أوباش النبط و أبناء أكرة القرى - فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون مالهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا» (٥)والذى يبدو أن ابن قتيبة اقتصر على من يتظاهر بالشعوبية وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة - وأما الاشراف فكانت حركتهم سرية لايجرؤون أن يظهروا بها لكبر مراكزهم وخشية من الشك فيهم عند الخلفاء - وهم يؤيدون ، من وراء حجاب ، هذه الحركة فلايتظاهرون بها مثل السفلة . وقد ذكر ابن قتيبة أن ممن ذهب مذهب الشعوبية ، « قوما تحلوا بحلية

الأدب فجالسوا الأشراف وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لآدابهم والغضاضة لاقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ودخل في باب فسيح لاحجاب عليه ونسب واسع لامدافع عنه - ومنهم من أقام على خساسته ينافح عن لؤمه ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوي الشرف ويظهر بغض العرب بتنقصها ويستفرغ مجهوده في مشاتمها وإظهار مثالبها وتحريف الكلم في مناقبها وبلسانها نطق وبهممها أنف وبآدابها تسلح عليها ، فان هو عرف خيرا ستره وان ظهر حقره وان احتمل التأويلات صرفه إلى اقبحها وإن سمع سوءا نشره وان لم يسمع نفرعنه وإن لم يحده تخرّصه» (٦).

فالحق أن الشعوبية لم تكن في السفلة وحدهم وهؤلاء السفلة لم يكونوا الآخذين بزمامها وانما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية وإن لم يرق نسبها إلى الملوك و الأشراف. والشعوبيون كانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان. ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقرضوا دولهم وهي مشاعر ما زالت تحتدم في نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم و دولتهم فيما بعد . ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفا وغيظا من العرب الملاحدة والزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة . وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالاسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية

والتماذي فيه وطول الجدل المؤدي للقتال ، فاذا أبغض شيئاً أبغض أهله وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلاتزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف والقدوة « (٧) .

وقد حارب الشعوبيون العرب بأشكال مختلفة . فمضوا يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضاراتها ومدنيتها - وفي مقدمتها الفرس - بسياساتهم وآدابهم وبلاغتهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى من النبط والسريان وغيرهما منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم و آداب وفنون عمارة . وكأنما ذهب أدرج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العنصرية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب . وكأنما كان هولاء الشعوبيون يتغنون أن يحدثوا صدعاً لا يلتئم ولا يمكن رآبه بين أفراد الأمة .

وهكذا لجأوا إلى توجيه المطاعن إلى العرب وتصوير ما كان عليه العرب في الجاهلية واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم (٨) . وكانت أهم المطاعن التي وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً رعاة أغنام وإبل ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدينة ولا معرفة بالعلوم . فأين هم قديماً من ملك الأكاسرة والقيصرية وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؛ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والروما ؟ وقد مضوا يزررون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصا وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسي كما أزروا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة. وأخذوا يتبعون مثالهم ويحسونها عليهم ويستقصونها .

وكان العرب بسبب أهاجيتهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها فاستغلوها في ذمهم وأضافوها إليهم مادة مختلقة . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقييح بعض شيمهم الرفيعة مثل الكرم والشجاعة وغيرهما وحاولوا طمسها ناقضين لها نقضا .

والأرجح أن اسم الشعوبية لم يستعمل إلا في العصر العباسي الأول (١٣٢/٧٥٠ - ٢٣٢/٨٤٧) ، لأن هذه النزعة التي تحاول مساواة الشعوب أو تحقير العرب لم تتخذ شكلا قويا واضحا يصح أن يطلق على معتنقيه اسم الشعوبية إلا في هذا العصر . وأما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفيفة لاتستطيع الظهور، وإذا ظهرت أجمدت ، والحاجة إلى الاسم تكون بعد ان يتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب (٩) . وبرزت الشعوبية بموجبتها الحادة بسبب انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية ولم تنزل تنتشر في المجتمع العباسي، وأول من استعمل اسم الشعوبية في كتبه هو الجاحظ (ت - ٢٥٥/٨٦٨) - (١٠) - وظلت نيران الشعوبية مستعرة في العصر العباسي الثاني (٢٣٢/٨٤٧ - ٣٣٤/٩٤٧) وبلغت أوجها في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي . وساعدها على ذلك أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام ولم يتعصبوا كثيرا للعربية ، فحاربوا الزندقة ولم يحاربوا - في شدة - النزعة الأعجمية - ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة (٢٧٦/٨٨٩) جميعا استطاعا أن يقضيا قضاء مبرما على الشعوبية فقلما يسمع بعدهما بشعر شعوبي أو بمن ألف في الشعوبية وانتصر لها .

### أثر الشعوبية في الأدب العربي :

ومن المحقق أن طبقة من الشعوبيين بلغت أعلى المناصب في الدولة العباسية وكانوا يمدون الشعوبية بجاههم وبمالهم . وأن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس . وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر . وإذا كان هؤلاء الرؤساء والعقلاء الماكرون هم زعماء هذه النزعة كانت حربهم علمية أدبية دينية أكثر منها ثورات ظاهرة .

#### (١) كثرة التأليف في المناقب والمثالب :

وقد أكثروا من التأليف في مناقب العجم ومفاخرهم كما أكثروا في مثالب العرب . كما أن الهيثم بن عدي وهو من أشهر العلماء بالأخبار والرواية، وقد جالس المنصور والمهدي والهادي والرشيد، وضع عدة كتب في مثالب العرب منها : كتاب المثالب الصغير وكتاب المثالب الكبير ، أسماء بغايا قریش في الجاهلية، وأسماء من ولدن ، وكتاب من تزوج من الموالي في العرب ، وكتاب بيوتات العرب، وكتاب بيوتات قریش وغيرها (١١) وألف علاف الشعوبية - وأهله من الفرس - كتاب الميدان ، في مثالب القبائل العربية وهتك فيه العرب وأظهر مثالبها وقد أجازها طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألف دراهم . وألف أيضا كتاب المثالب ، ويحتوي على مثالب قریش ومثالب تيم بن مرة ومثالب بني أسد بن عبد العزى ومثالب بني مخزوم وعد القبائل كلها وذكر مثالبها . (١٢) وكان ابو عبيدة معمر بن المثني اللغوي الاخباري يكره العرب كراهة شديدة وألف في مثالبها كتبا . (١٣) فهو يتعصب للفرس لأن أصله كان من يهود فارس . وألف كتابا في مفاخرة الفرس باسم فضائل الفرس ،

وهو في الوقت نفسه تعرض للعرب في كتب كثيرة منها :  
 كتاب المثالب ، وكتاب لصوص العرب ، وكتاب أدعياء العرب  
 وكتاب بيوتات العرب. (١٤) وقد صرف جهوده على تسجيل  
 مثالب العرب وبلغ من فساد طويته أن طعن في بعض أسباب  
 الرسول صلى الله عليه وسلم (١٥) . وليس من شك في أن  
 عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقايض جرير  
 والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل .

وقد صور لنا ابن قتيبة نوعا من الطعن الذي كان  
 يستعمله أبو عبيدة . فقد عمد إلى مفاخر العرب فتهكم بها،  
 وكانوا يفخرون بقوس حاجب ويعتزون بوفائه فتضحك عليه  
 واستضحك الناس منه واستسخر فعل الحاجب وخساسة عوده  
 وقلة ثمنه . ويذكر قول الشاعر :

يا ابنة عبد الله وابنة مالك

ويا ابنة ذى البردين والفرس الورد

فيهزأ بالشعر ويعجب في سخرية من التمدح بأن أباهذا  
 بردين وفرس ورد، ويقارن ذلك بملوك فارس وتيجانها وأن أبرويز  
 كان يرتبط تسع مائة وخمسين فيلا على مرابطه وتخدمه ألف  
 جارية وفي حجرته التي يشرف منها على الداخل عليه ألف إناء  
 من ذهب (١٦) .

وألف ابو عبيدة كتابا آخر في أخبار الفرس وصف فيه  
 طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف وأخبارهم وخطبهم وتشعب  
 أنسابهم وما بنوه من المدن وكوروه من الكور واحتفروه من  
 الأنهار، وأهل البيوتات منهم وما وسم به كل فريق من السهارجة  
 وغيرهم (١٧) .

وكان ممن يستشعر الشعبية في أعماقه ، الكاتب الأديب

سهل بن هارون أحد صنائع البرامكة . وقد أسند إليه المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة . وكان يتعصب على العرب تعصبا مسرفا وصنف في ذلك كتبا كثيرة ورسائل في البخل (١٨) . وقد افتح الجاحظ كتابه « البخلاء » برسالة له أشاد فيها بالبخل وغيض غضا شديدا من فضيلة الكرم العربية وعد الكرم رذيلة والبخل فضيلة ، لأن العرب اشتهروا بالكرم كما اشتهر الفرس بالبخل (١٩) .

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون الشعوبية سعيد ابن حميد بن البختكان . وكان كاتبنا شاعرا مترسلا عذب الألفاظ . وكان من أبناء دهاقين الفرس ورغم أنه من سلالة ملوكهم وله في الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة منها : كتاب انتصار العجم من العرب ويعرف « بالتسوية » . (٢٠) كما ألف ابن غرسية في الأندلس رسالة في تفضيل العجم على العرب وقد رد عليه علماء الأندلس في رسائل عديدة (٣١) . ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة فقد أخذوا يردون على أصحابها . ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد - مدافعين عن العرب - الجاحظ في فاتحة الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين وابن قتيبة في كتاب العرب و الرد على الشعوبية .

## ٢) وضع القصص الشنيعة :

وقد وضع الشعوبيون في الأدب العربي قصصا كثيرة تؤيد جانبهم وكانت هذه القصص الشنيعة أخطر على العرب من الحرب الظاهرة ، لأن نقضها أصعب - فقد وضعوا القصص في شرح الأبيات أو الأمثال واختلقوها اختلاقا ، كما فعل أبو عبيدة في شرح المثل : « جبان ما يلوى على الصغير » - ونقل البكري

في كتابه « التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه » حكاية في ذلك عن أبي عبيدة لا يستطيع أحد ذكرها لشناعتها . (٢٢) وروى الهيثم بن عدي قصة طويلة تتلخص في أن رجلا من تنوخ نزل بحي من بني عامر فخرجت إليه جارية وقالت : ممن أنت ؟ قال : أنا من تميم ، فذكرت له أبياتا في ذم تميم ، فقال لها : لست من تميم بل أنا من قبيلة عجل ففعلت ذلك وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة وهي تروي الأبيات في ذمها حتى استنفد القبائل . ولما انتسب الى بني هاشم قالت : أتعرف الذي يقول :

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم

فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم

فإن قلت : رهط النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإن النصارى رهط عيسى بن مريم . (٢٣) والقصة كلها على ما يظهر من وضع الشعوبية أو من وضع الهيثم بن عدي نفسه ، يرمي واضعها إلى ذكر مثالب القبائل العربية .

(٣) إفساد الأدب بنسبة الشيء إلى غيره :

قد سلك الشعوبيون هذا المسلك لإفساد الأدب العربي وإضاعة معالمة حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به - وتلك أكبر بغية لهم . ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عبيدة في شرح البيتين الآتين :

هينون لينون أيسار ذووكرم

سواس مكرمة أبناء أيسار

ان يسئلوا الخير يعطون وان خبروا

وفي الجهد أدرك منهم طيب أخبار

والبيتان للعرندس الكلابي يمدح بنى عمرو الغنويين

وقد أنكر الاضمعي عليه ذلك وقال :

محال يمدح كلابي غنويا لما بينهما من العداوة (٢٤).  
وهكذا كثير من وضع الشعوية للحط من العرب وإفساد الأدب  
العربي .

٤) الإختراع فى التاريخ وتلوينه :

ومن آثار الشعويين أنهم اخترعوا كثيرا فى التاريخ ولونوه  
لإثبات فضلهم . فقد لَوَّنوا ما رووا من تاريخ الفرس لونا زاهيا  
جميلا ونسبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة الحكيمة  
وكسوها بهمة وعظمة بالغوا فيهما . مثل زعمهم أن الفرس من  
ولد إسحاق بن ابراهيم عليهما السلام والعرب من ولد إسماعيل  
ابن ابراهيم واسحاق ابن سارة الحرة واسماعيل ابن هاجر الامة  
فهم أفضل من العرب لأنهم بنو الأحرار وأما العرب فهم بنو  
اللخناء . وهي دعوى غير صحيحة علميا وإنما وضعت لترفع  
من شأنهم وليفخروا بها على العرب (٢٥).

وهكذا اخترع الشعويون أن سابور، سمي ذا الأكتاف  
لأنه أوقع بالعرب فى العراق وخلع أكتافهم (٢٦). وأغرب من  
ذلك ما اخترعه شعوية النبط من حديث نسبوه إلى علي بن ابي  
طالب رضي الله عنه فقد رووا أن رجلا سأله فقال: أخبرنى يا  
أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش ، فقال : نحن قوم من  
نبط كوئى (بلد فى العراق) . ورووا عن ابن عباس رضي الله عنه  
أنه قال : نحن معشر قريش من النبط من أهل كوئى ، وفى رواية  
أخرى عن علي أنه قال : من كان سائلا عن نسبتنا فإننا نبط من  
كوئى (٢٧) وقد حاولوا بهذه الروايات أن يستلوا قريشا قوم  
الرسول صلى الله عليه وسلم من العرب ويدخلوهم فى  
غمارهم .

## (٥) وضع الحديث في مؤلفاتهم :

وقد وضع الشعوبيون في مؤلفاتهم أحاديث كثيرة في فضل الفرس و أسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . مثل ما روي أن الأعاجم ذكرت عند الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : لأنا بهم أوثق مني بكم وفي رواية : لأنا ببعضهم أوثق مني ببعضكم .

وفي حديث آخر: سيأتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها لإدمشق. وفي حديث: لا تسبوا فارسيا فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا. ورأى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه ردفه غنم سود فردفته غنم بيض ما يرى السود فيها لكثرتها، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر رضي الله عنه فقال: السود العرب ويسلمون والبيض العجم يسلمون بعدهم حتى ما يرى فيهم العرب لكثرتهم، فقال بذلك أخبرني الملك سحرا. (٢٨)

وهكذا روي لسلمان الفارسي رضي الله عنه من الزهد والحكمة والعلم ما لم يرووا لأي صحابي آخر حتى جعلوا عمره فوق أعمار الناس فقيل إنه أدرك عيسى عليه السلام وروي أبو الشيخ في طبقات الأصفها نيين، أن أهل العلم يقولون: عاش سلمان ثلاث مائة وخمسين سنة فأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيها. (٢٩) ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه تلا هذه الآية «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم» فقالوا : من يستبدل بنا؟ فضرب صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لنال رجال من فارس، وهو الذي قيل فيه: سلمان من أهل البيت، وهو الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق

ومن ذلك الحين عرف العرب كيف يستعملون الخنادق في الحروب فهم في ذلك مدينون للفرس .

ومن هذا القبيل ما وضعوه من أحاديث كثيرة حول الإمام أبي حنيفة النعمان الفارسي الأصل ويزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار بها إليه أونص عليه كالذي روي : لو كان العلم معلقا عند الثريا لتناوله رجل من فارس . وكالذي رووا : أن آدم افتخر بي و أنا افتخر برجل من أمتي اسمه نعمان وكنيته أبوحنيفة وهو سراج امتي . ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن سائر الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفتخر بأبي حنيفة ، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني . (٣٠)

وعلى الجملة فقد اتخذ الفرس ذلك وسيلة لبيان عظمتهم وأن لهم فضلا كبيرا على المسلمين وعلى الشعوب الأخرى .

وقد قابل أنصار العرب عمل الشعوبيين هذا بمثله فوضعوا أحاديث كثيرة في تفضيل العرب ووجوب حبهم مثل : من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي ، ومثله إذا اختلف الناس فالحق في مضر. ومثل : أحبو العرب لثلاث : لأنني عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي . ومن ألطف ذلك أنهم رووا حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم مع سلمان الفارسي نفسه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك ، قال : يا رسول الله : كيف أبغضك وبك هداني الله ، قال : لا تبغض العرب فتبغضني (٣١) .

#### (٦) مقارنة وتحليل :

ومع هذا كله فقد كان للشعوية جانب حسن ، فقد ظهرت الشعوية وكل شيء للعرب يمجّد من نسب عربي ولغة

عربية ورأى عربي وعادات عربية . فأخذ الشعوبيون يعرضون هذا بالنقد والتحليل . فعرضوا أنساب العرب للنقد كما فعل أبو عبيدة مع غلوه فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب ، فيبين أن النسبة كاذبة مختلقة . وهكذا عرضوا اللغة العربية للنقد فسيبويه في كتابه النحو يخطئ العرب في بعض أقوالهم ، ويدعى العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد الشعوبية بأن هناك أما أخرى لها بلاغة وخطب وحكم لا يقل عما للعرب . وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى للعادات ففيها الحقيير المرذول والجيد المحمود . كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه مثل عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم ، فتعرض البلاغة و الحكم العربية بجانب البلاغة والحكم الفارسية ونحو ذلك . وهذا - بلاريب - مفيد للعلوم والآداب . (٣٢)

#### (٧) أثر الشعوبية في الشعر العربي :

تأثر الشعر بالشعوبية بسبب تأثر الشعراء بهذه النزعة العصبية وأهم شاعر أوقد نيران العصبية وظل يمدّها بحطب جزل من أشعاره ، بشار بن برد . وكان في العصر الأموي يكثر في الفخر بمواليه من قيس حتى إذا حدثت الثورة العباسية انقلب معها يتبرأ من العرب وولائهم ناسبا ولاءه إلى الله ذي الجلال فيقول: (٣٣)

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم

مولى العُريب فخذ بفضلك فافخر

قد مضى يشنّ حرباً عنيفة على العرب وكان أبوه طيانا يضرب اللبن فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلًا - كما يقول ابن قتيبة - بذلك في باب فسيح لاحجاب عليه ونسب

واسع لامدافع عنه . ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه بل  
مشى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه الى قياصرة الروم على نحو  
ما نجد في قصيدته : (٣٤)

هل من رسول مخبر عنى جميع العرب  
وهى تصور ضراوة حقه العنيف على العرب . وقد مضى  
فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس  
والروم .

ومن يسلكون فى شعراء الشعوبية أبونواس وشعوبيته ترجع  
إلى شغفه بالخمير وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات  
الأجنبية . فهي شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات، وكان  
يبتغيها ما وجد إليها سبيلا ويجعلها غاية الغايات من حياته . وقد  
مضى يصور بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدية الخشنة  
وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة  
الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة والغلو فى الشراب  
والإغراق فى اللذات .

ومن شعراء الشعوبية المتوكلي الشاعر المنسوب إلى الخليفة  
المتوكل (٨٤٧/٢٣٣ - ٨٦١/٢٤٧) لأنه كان من ندمائه ،  
إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة : (٣٥)

انا ابن الأكارم جم وحائز إرث ملوك العجم  
وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أنم  
فقل لبني هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم  
وعودوا الى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم  
فاني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم  
ويتضح من هذه الأبيات أن قلب المتوكلي يضطرم حقا  
وضغينة على العرب حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أي

جمشيد الملك الفارسي القديم وأنه ليتجه إلى حكام الأمة من  
بنى هاشم مهددا لهم متوعدا ومنذرا أن يبادروا إلى خلع أنفسهم  
والعودة إلى موطنهم الاصلى فى الحجاز يعيشوا كما كان يعيش  
آبائهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ويرعون  
الأغنام . وكأنه نسى أن بنى هاشم من قريش سكان مكة فى  
القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ولكن الشعوبية  
العمياء الرعناء دفعته إلى ذلك .

وعلى ذلك نرى أن اسراب الشعوبية كانت تسقط إلى  
شعراء النبط والهند من مثل أبى الاصلع الهندى إذ يفخر بالهند  
وما أخرجت بلاد الهند فيقول : (٣٦)

لقد يعدلني صحبي وما ذلك بالأمثل  
ففى مدحتي الهند سهم الهند فى المقتل  
وفيه الساج العاج وفيه الفيل والدغفل  
والملاحظ أن الروح العربية على الرغم من هذه الشعوبية،  
ظلت شامخة مهيمنة يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة  
والقواد ومستشاري الدولة كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء  
اللغة ورواة الشعر . وقد رد بعض شعراء العرب على الشعوبية  
وأصحابها على نحو ما نجد عند أبى الأصمغ محمد بن يزيد  
الأموي الحصني فى تصديده لعبدالله بن طاهر حين افتخر فى  
قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن الحسين قاتل الأمين  
فقد نقضها نقضا بقصيدته : (٣٧)

لا يرعك القال والقيلى كل ما بلغت تضليل  
وعلى ذلك تجرد نفر من الموالي أنفسهم للرد على  
أصحاب هذه النزعة الأئمة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم  
الحنيف على نحو ما نراه عند الجاحظ وابن قتيبة . وقد أسلفنا أن

الجاحظ وابن قتيبة جميعا تصديا للشعبوية الآثمة واستطاعا أن يقضيا عليها قضاء مبرما . فقلما سمع بعدهما بشعر شعوبي أو بمن ألف في الشعبوية وانتصر لها . أما الجاحظ فقد عقد في كتابه « البيان والتبيين » ( ٣٨ ) بابا طويلا سماه « كتاب العصا » صور فيه طعن الشعبوية على العرب ونازعهم في عنف شديد . ولكي يبلغ ما كان يريد إفحامهم ومقاومتهم جعل كتاب البيان والتبيين ردا مفحما عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، لكي يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فقد رد على الشعبوية ردا عنيفا في كتاب له سماه « كتاب العرب » أو « الرد على الشعبوية » . ولم يكتف بتعنيفه عليهم في هذا الكتاب الطريف فقد عنف بهم في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » ( ٣٩ ) مصورا قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية . وحاول محاولة طريفة في كتابه « عيون الأخبار » ( ٤٠ ) أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعبوية قضاء مبرما .

وبالجملة إن النزعة الشعبوية لم تكن عقيدة محددة التعاليم لها شعائر معينة ظاهرة وإنما بدأت على تعاليم الإسلام للتسوية بين الشعوب لكنها تدرجت من ذلك إلى تحقير العرب وتصغير شأنهم وتفضيل ميزة الشعوب الأعجمية على العرب . وظلت النزعة تعمل وتنتشر في المجتمع العباسي حتى بلغت أوجها في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وكانت لها أثرها في الأدب العربي . نثره وشعره . ومن ناحية أخرى حاول أنصار

العرب من الأدباء والعلماء والشعراء والرؤساء أن يقاوموا الشعبية وأصحابها واستطاعوا ان يقضوا عليها قضاء مبرما . وبهذه الصورة عد المسلمون هذه النزعة الآثمة نزعة ضد الاسلام فتخرجوا من نقل الكتب المؤلفة فيها وتقربوا الى الله بالتخلص منها وبرئ المخلصون من الميل إليها ، فلم تتداول أيدي الزمن كتب الشعبية ولم يبق منها إلا نطف من أقوالهم وآرائهم وأهمها ماورد في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ وما ورد في « كتاب العرب » لابن قتيبة وما نقله ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد» .

### هوامش

- ١- ابن منظور : لسان العرب ، نشر أدب الحوزة ، قم ايران ١٤٠٥ هـ ج ١ ص ٥٠٠ .
- ٢- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف مصر ١٩٧٦ م ص ٧٥ .
- ٣- القرآن الكريم : سورة الحجرات الآية ١٣ .
- ٤- ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ، بولاق ١٣٢٩ هـ ج ٢٦ ص ٨٨ .
- ٥- ابن قتيبة : كتاب العرب ، مشمول رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٩١٣ م ص ٢٧٠ .
- ٦- نفس المرجع .
- ٧- الجاحظ : كتاب الحيوان ، دار إحياء التراث العربي القاهرة ، بدون تاريخ ، ج ٧ ص ٢٢٠ .
- ٨- انظر هذه المطاعن في : البيان والتبيين للجاحظ مكتبة الخانجي بمصر ١٩٤٨ م ج ٣ ص ٥ وما بعدها ، وكتاب العرب ص ٢٧١ وما بعدها، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ت : عبد الحميد الترحيني ، دارالكتب العلمية

- بيروت ١٩٨٣ م ج ٣ ص ٣٥٢ وما بعدها .
- ٩- أحمد امين : ضحى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٣ م  
ج ١ ص ٥٧ .
- ١٠- الجاحظ : كتاب الحيوان ج ٧ ص ٢٢٠ والبيان والتبيين ج ١ ص ٣٨٣  
وج ٣ ص ٥ .
- ١١- ابن النديم : الفهرست ، مكتبة الخياط بيروت ، ص ٩٩ و ١٠٠ .
- ١٢- نفس المصدر : ص ١٠٥ و ١٠٦ .
- ١٣- ابن خلكان : وفيات الاعيان ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨ م  
ج ٣ ص ٣٢٣ .
- ١٤- الفهرست ص ٥٤ .
- ١٥- ايضا ص ٥٣ .
- ١٦- كتاب العرب ص ٢٧١ وما بعدها .
- ١٧- المسعودي : مروج الذهب ، دارالاندلس بيروت ١٩٦٥ م ج ١ ص ٣١٢ ،  
٣١٣ .
- ١٨- الفهرست : ص ١٢٠ .
- ١٩- الجاحظ : كتاب البخلاء ، المطبعة الخيرية مصر ١٣٢٥ هـ ص ١١ وما  
بعدها .
- ٢٠- الفهرست ص ١٢٣ .
- ٢١- ضحى الاسلام : ج ١ ص ٥٩ .
- ٢٢- نفس المرجع : ص ٧٠ .
- ٢٣- مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٨٠ .
- ٢٤- ضحى الاسلام : ج ٣ ص ٢٧١ .
- ٢٥- كتاب العرب : ص ٢٧٥ .
- ٢٦- مروج الذهب : ج ١ ص ٢٨٠ .
- ٢٧- ياقوت الحموي: معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ م ، ج ٥ ص ٤٨٨

- ولسان العرب ج ٢ ص ٢٨١ و ٢٨٢ .
- ٢٨- ضحى الاسلام ج ١ ص ٧٥ .
- ٢٩- ابن حجر العسقلاني : الإصابة فى تمييز الصحابة ، دارالكتب العلمية بيروت ، ج ٣ ص ١١٣ .
- ٣٠- ضحى الاسلام : ج ١ ص ٧٦ .
- ٣١- كتاب العرب : ص ٢٩٣ .
- ٣٢- ضحى الاسلام : ج ١ ص ٧٨ .
- ٣٣- ابوالفرج الاصفهاني : كتاب الأغاني ، دارالكتب العلمية بيروت ١٩٨٦ م ج ٣ ص ١٣١ .
- ٣٤- بشارين برد : ديوان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ج ١ ص ٣٣٧ .
- ٣٥- ضحى الاسلام : ج ١ ص ٦٥ .
- ٣٦- كتاب الحيوان : ج ٧ ص ١٧١ .
- ٣٧- ابن المعتز : طبقات الشعراء ، دارالمعارف مصر ١٩٨١ م ص ٢٢٩ و ٢٠٠ والأغاني ج ١٢ ص ١٢٤ .
- ٣٨- البيان والتبيين : ج ٣ ص ٥ ، وما بعدها .
- ٣٩- ابن قتيبة : أدب الكاتب مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ م ص ٦ وما بعدها .
- ٤٠- ايضا : عيون أخبار ، دارالكتب المصرية ١٩٦٣ م ، مقدمة ص (ح) وما بعدها .